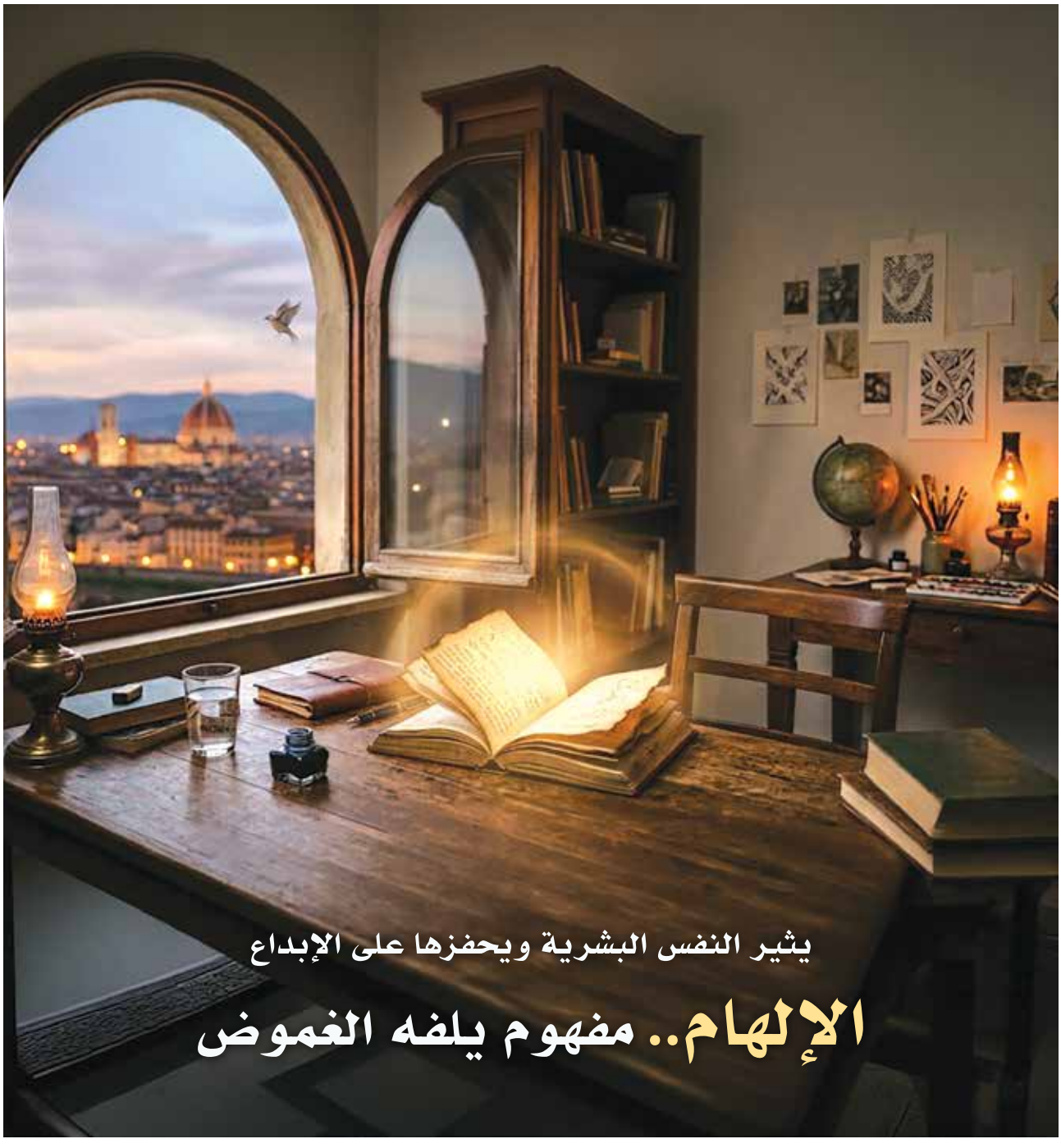

يثير النفس البشرية ويحفزها على الإبداع

الإلهام.. مفهوم يلفه الغموض

عبدالنبي اصطيف

مـا مصدر (الإلهـام) فـي الأدب والفـن والعلوم والمعارف المختلفة؟ وما الذي يثيره في النفس البشرية فيحفزها على إنتاج ما تنتج من إبداعات، وتحقـق ما تحقق من إنجـازات؟ وما طبيعة هذا المفهوم الذي يلفه الغموض، والذي يظل هاجسَ الفنـان المبدع، يطلبـه حافزاً على إنتاج ما ينشـده من جديد؟

"ساد الاعتقاد أن الإلهام مصدره خارجي حتى مطلع العصر الحديث"

ساد الاعتقاد، منذ العصور الكلاسيكية وحتى مطلع القرن الثامن عشر، أن مصدره خارجي، لدى البعض، أو كامن في الطبيعة المحيطة بنا لدى البعض الآخر. فقد اعتقد اليونانيون أن مصدره (أبولّو)، الذي قام بتوزيع الفنون وإلهامها على أرباب الفنون، فعلى سبيل المثال، رأى أفلاطون، الذي أصرّ على إخراج الشعر من جمهوريته، أنه مصدر الإلهام، الذي ينقله إلى راويه، والذي ينقله بدوره إلى جمهوره، وشبه هذه السلسلة من صور الإلهام بحجر المغناطيس الذي يجذب المعادن. في حين اعتقد العرب أن مصدره من يسكن وادي عبقر، ومنه اشتقوا كلمة عبقري، بل جعلوا لكل شاعر شيطاناً يُلهِمه ما يبدع، ينسبون إليه تفوقه وإخفاقه في آن معاً.

غير أن الأمر تغير في مطلع العصر الحديث، عندما بدأ دارسو الفن يفكرون في مصدر داخلي للإلهام هو اللاشعور، وفي مثيراته التي تحفز على الإبداع.

ويبدو للمرء أنه يمكن الجمع ما بين المصدرين الخارجي والداخلي بإحالة الإلهام على الفن ذاته، وأحد أفراد أسرة الفنون الجميلة الذي هو الأدب. ذلك أن قراءات الأديب ومشاهداته في العالم المحيط به، من عمارات شامخة، ولوحات رائعة، ومنحوتات فاتنة، ومسرحيات تشاغل الفكر والعقل والروح معاً، وأفلام تجمع الفنون كلها في شريط سينمائي، فضلاً عن الحياة وما تنطوي عليه من خبرات وتجارب وعلاقات، تشكل مصدراً مهماً، بل رئيسياً للإلهام في عالمنا، والأمثلة على هذا المصدر، الذي يبدو للوهلة الأولى خارجياً، غير أنه لا يلبث أن يُداخِل، بعد تماسّه مع الفنان، روحَه وقلبَه وعقلَه، ويستنفر فيه طاقة الإبداع، ومن ثمَّ فإنه يصبح داخلياً أيضاً.

ولعل مثالاً واحداً يكفي للتدليل على هذا المصدر الخارجي الذي يتحول إلى محفِّز داخلي، وهو ما تحاوله هذه السطور في حديثها عن ديوان الشاعر الأندلسي فريدريكو غارثيا لوركا (شاعر في نيويورك) (١٩٤٠م) الذي نشأت حوله شبكة معقدة من علاقات كانت مصدر إلهام لأصحابها عبر ما يقرب من قرن، يُشكِّل أطرافها حلقةَ إلهام تجمع ما بين خمسة شعراء من ثلاث قارات، وثلاث لغات، وهمٍّ واحد هو الإبداع.

يكتب عابد إسماعيل في خاتمة تقديمه لديوان (شاعرة في الأندلس) (٢٠١٩م)، للشاعرة الأمريكية من أصول فلسطينية ناتالي حنظل، مسوِّغاً إقدامه على ترجمته للقارئ العربي:

(ويجمعني شخصياً بالشاعرة حنظل والشاعر لوركا، ذاك الشغَف بعبق الأندلس وموشحاتها وشعرائها، فضلاً عن المكان الذي شاء القدرُ أن يجمعنا فيه نحن الثلاثة، جغرافياً ومجازياً ووجدانياً، وتحديداً في مدينة مانهاتن، على نهر هدسون في نيويورك، حيث كتبت أثناء إقامتي فيها للدراسة، ثلاثة دواوين شعرية متتالية، على مدى سنوات ست (١٩٩٠-١٩٩٦م)، خبِرت خلالها شوارع وأحياء ومقاهي هذه المدينة، التي لا يفلت من رمزيّتها الطاغية، فنان أو شاعر أو مثقف، بوصفها ملهِماً لروح الحداثة في زمننا).

ويضيف مذكراً قارئه بصلة أخرى لـ(لوركا) فيقول: (وثمة دلالة عميقة في أن تستهل حنظل ديوانها باقتباس شعري من لوركا، يخاطب فيه ابن مدينة نيويورك وشاعرها الفذ، وولت ويتمان، الذي لا تكتمل أسطورة الشعر الحديث من دونه، ربما لأن روحه تسري في قصائدنا جميعاً، على اختلاف لغاتنا وثقافاتنا وأساطيرنا).

غير أن ثمة صلة أحدث، غابت عن عابد إسماعيل، الحديثُ لتأخُّرها عن مقدمته، هي صلة الشاعر العربي فاروق يوسف العراقي بـ(لوركا) ونيويورك، الذي نشر عام (٢٠٢٠م) يومياته (شاعر عربي في نيويورك على خطى

أصبح مفهوماً يجمع بين المصدرين الخارجي والداخلي بما تنطوي عليه حياة المبدع من خبرات وعلاقات

قد يصبح المصدر الخارجي محفزاً داخلياً كما حدث مع ديوان الشاعر الأندلسي لوركا

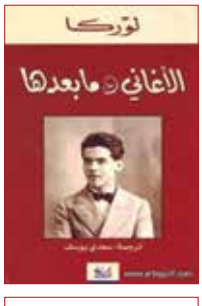

لـوركا في مانهاتـن، والتي فـازت بجائزة ابن بطوطـة لأدب اليوميات ٢٠٢٠م)، والتي يخالط الشـعر فيها النثر، ويتقفى فيها خُطى لوركا في مانهاتن.

والسؤال الذي يعرض للمرء في هذا المقام هو: مـا الـذي يكمن في بـؤرة هذه الشـبكة المعقدة من العلاقـات المتبادلة ما بين لوركا، وناتالـي حنظـل، وعابـد إسـماعيل، وفاروق يوسف، ووولت ويتمان، والممتدة نحواً من قرن (١٩٢٩م) عندما وصل لوركا إلى نيويورك، وعام نشر يوميات فاروق يوسف (٢٠٢٠م).

والجواب بكل بسـاطة: إنـه (الإلهام) الذي يُداخِل مسـعى أي فنان أو أديب في رحلته على درب الإبداع.

وفـي بيان ذلـك نتذكّر: أن لدينـا مصدراً أولياً له هو (ديوان لوركا شـاعر في نيويورك) (١٩٤٠م)، الـذي ألهـم الشـاعرة الأمريكيـة اللاتينيـة مـن أصـول عربية، ناتالـي حنظل، ديوانَها (شـاعرة في الأندلس) (٢٠١٢م)، الذي هو معارَضَة تمضي باتجاه معاكس (من نيويورك إلى الأندلس) لمسيرة مُلهِمها، إذ تختار الأندلس مقصدا لها؛ كما ألهم شـاعراً عربياً من العراق يحمل الجنسية السويدية ويقيم في لندن، تقفى أثر لوركا، ومضى على خطاه في نيويورك.

وأخيـراً.. فإن ديوانُ حنظل ألهم الشـاعرَ العربي السـوري عابد إسـماعيل، الذي أقام فـي نيويـورك، ودرس فـي جامعتها، وأنشـأ دواويـن ثلاثـة فيمـا خلّفتـه في نفسـه من مشـاعر وأحاسـيس وهواجس، فقـام بترجمة الديوان إلـى العربية، وقدّم له، وختم ترجمته بدراسـة موجزة لمحتواه، أرضى بهذه الترجمة شـغفَه بالأندلس وموشـحاتها وشـعرائها من جهة، وصلتـه الخاصة بنيويـورك التي جمعته بالشـاعرة، وبلوركا، وبشـاعرها العظيم وولت ويتمان من جهة أخرى.

والواقع أن هذا الإلهام يسـتند إلى عاملين اثنين جمعا ما بين الشـعراء الخمسـة.. أوّلهما: الشـغَف بالأندلـس وفنونها؛ فلـوركا ولد فيها، وفيها نشـأ وترعـرع، وفيها دُفِن شـهيدَ وطن انسـرب حبُّه في روحه، وناتالـي حنظل حملتْ عبـق الأندلس فـي ذاكرتهـا، وذاكـرة والدها الجمعية، وظلت تلك الجنةُ المفقودةُ هاجسَـها من خـلال لغتها الأولى، فقد ولدت في هاييتي لأسرة من أصول فلسطينية، وما فتئت أن عادت إلـى الأندلس متقفِّية خطى لـوركا، لتعوجَ على مختلف المرابع التي شـهدت طفولته وشـبابه، وعابـد إسـماعيل شـغف بالأندلـس وعبقها وموشـحاتها وشـعرائها، كما يعلن عن ذلك في تقديمه لترجمة ديوان حنظل.

وثانيهما: فسـحة (مانهاتـن) التي قصدها لـوركا وعاش فيهـا نحواً من عـام، وكتب فيها قصائده التي نشـرت بعد وفاتـه عام (١٩٤٠م) تحـت عنوان (شـاعر فـي نيويـورك)، والتي اتخذتهـا ناتالـي موطِنـاً لهـا، حيث درَسـت، ودرَّسـت، بل تبنّت لغتها أداةً لإبداعها الشعري والمسرحي والنقدي والبحثي. والتي ارتحل إليها عابد إسماعيل طلباً للعلم، وألهمته ثلاثة دواوين من شـعره، فضلاً على رسالته لدرجة الدكتوراه التي انصرف فيها إلى دراسة الشاعر الأمريكي ولاس سـتيفنس في جامعة نيويورك (١٩٩٥م)، والتـي تقفى فيها فاروق يوسـف خطى لوركا، وأنشـأ فيها يومياته التي مزج فيهـا اليوميات بالشـعر، التي نشرها عام (٢٠٢٠م)، بعد فوزها بجائزة ابن بطوطة لأدب اليوميات. والتي عاش فيها شـاعر أمريكا الفذّ وولـت ويتمان، الذي سكنت تجربته الشـعرية الفذة الشعراء الأربعة، وسرت في قصائدهم.

ثمة إذاً شبكة مركبة من العلاقات المتبادلة ما بين شعراء نيويورك الخمسة، لُحمتها وسداها الفنُّ والمـكانُ، والتواصلُ بحثـاً عن (الإلهام) الـذي يحفـز الإبـداع، وهو مطلـب كل منهم ومسعاه الوجودي للدخول إلى دائرته.

ناتالي حنظل

عابد إسماعيل

فاروق يوسف

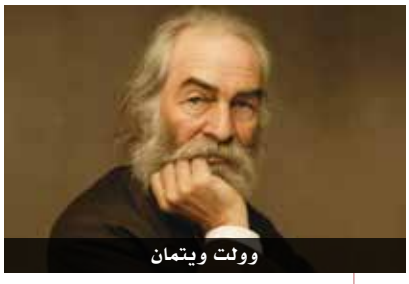
وولت ويتمان

ديوان لوركا جمع بين محفز داخلي من خلال خمسة شعراء من ثلاث قارات ولغات

يستند الإلهام إلى عاملي الشغف الأندلسي ونيويورك المكان